المصطلح وأثره على رحلة المفاهيم

محمد بنعمر باحث من المغرب

www.nama-center.com
الآراء الواردة في الورقة لا تعبر بالضرورة عن رأي المركز

مركز نماء للبحوث والدراسات
Namaa Center for Research and Studies
نماء وانتماء

المصطلح وأثره على رحلة المفاهيم

محمد بنعمر
باحث من المغرب

إشكال أولى

نسعى من هذه الورقة البحثية إلى إبراز التأثير الذي يمارسه التداخل المعرفي الذي كان قائمًا بين العلوم باختلاف تخصصاتها في التراث العربي الإسلامي على انتقال المفاهيم والمصطلحات من حقولها المعرفية الأصلية المحتضنة لها، التي نشأت وتأصلت فيها إلى الحقول المعرفية المستقبلة لها، والتي انتقلت ووفدت إليها تلك المفاهيم، واستقرت في العلوم المستقبلة لها[1]... .

فقد استقبلت كثيرٌ من العلوم والمعارف عددًا كبيرًا من المفاهيم الوافدة عليها من تخصصات علمية وعلوم معرفية أخرى تتقاسم وتشترك معها كثير من الإشكالات الفكرية والقضايا العلمية والنظرية والمنهجية.

وهذا الإشكال المتعلق برحلة المفاهيم بين التخصصات العلمية هو الذي سنعمل على إبرازه وإظهاره، وتجلية آثاره ونتائجه في هذه الورقة العلمية التي أردنا لها أن تكون خصيصيّ في بيان تأثير تداخلية العلوم بين التخصصات العلمية في التراث العربي الإسلامي وإبراز هذا التأثير على مفاهيم تلك العلوم من حيث نشأتها وأصلها وتطورها وانتقالها بين الحقول المعرفية، ومدى التغير الدلالي الذي طرأ عليها، ولحقها بفضل هذا الانتقال والعبور.

علمًا أن انتقال المفاهيم ورحلتها بين التخصصات العلمية والحقول المعرفية يُعد من أبرز المواصفات المركبة للمسألة المصطلحية والمفهومية في التراث العربي الإسلامي.

---

(١) للوقوف على حقيقة تداخلية العلوم وتكامليتها يُراجع:

- ندوة: أهمية التكامل المعرفي بين علوم العربية في فهم القرآن الكريم، كلية اللغةالعربية، مراكش ٣١/٣٠- ١٠- ٢٠١٣.

- الورقة العلمية التي شاركنا بها في مؤتمر تكاملية العلوم وعلاقتها بالعلوم الأخرى في كلية أصول الدين بقسنطسنة بجامعة عبد الحميد بن باديس يوم: ٢٠١٥/١١/٢٤. وكانت بعنوان: التكاملية بين العلوم: الأسباب - المرجعيات – التجليات.

التداخلية في العلوم الإسلامية

من الظواهر الثقافية التي تستوقف الدارس والباحث والمتابع لمسار التراث العربي الإسلامي في تطوره التاريخي، هو ذلك التداخل والتلاحم القائم بين العلوم التي نشأت في هذا التراث ...

حيث إن العلاقة التداخلية والتكاملية كانت هي السمة البارزة والغالبة على جميع العلوم التي نشأت وتطورت في أحضان الثقافة العربية الإسلامية[1]... .

فالعلوم الإسلامية كانت في مجملها قائمة ومؤسسة على التداخل والتكامل والتفاعل بين عناصرها ومكوناتها. ما يعني أن المعرفة الإسلامية تتأسس مكوناتها على تداخل مجموعة من العلوم سواء كانت تلك العلوم مقصودة لذاتها، أو علوم مقصودة لغيرها. فقوة المعرفة الإسلامية كما قال كثيرٌ من الدارسين والباحثين والمتتبعين تحدد في تكاملية علوم التراث العربي الإسلامية، وتداخل معارفها من حيث المهام والأداء والوظيفة[2]، بحيث إن كل علم قد دخل في علم آخر وصار خادمًا له ومتواصلًا معه.

وهذا التداخل بين العلوم الذي كان قائمًا خاصة في العلوم الإسلامية، استوقف كثيرًا من الدارسين، وأثار عددًا من الباحثين. وهو ما جعل البحث يتجه إلى الأسباب وعن الدواعي، من أجل الوقوف على أهم النتائج والآثار التي كانت من وراء هذا التداخل والتكامل، الذي كان حاضرًا وقائمًا بشكل واضح وجليّ، بين علوم الحضارة العربية الإسلامية في امتداداتها الزمانية والمكانية.

وكان من آثار هذا الاعتراف المبدئي بهذه التداخلية في العلوم الإسلامية بأن تمت مجاوزة ومصادرة الأطروحات والتوجهات والرؤى والاختيارات التي تتجه لمناصرة التوجه ولتبني الموقف القائل باستقلالية العلوم التراثية وانفصالها من حيث الموضوع والمنهج وتقاطعها في الإطار المرجعي. وعدم تشاركها في المفاهيم المتداولة، وتقاسمها للمصطلحات المشكلة لجهازها المفاهيمي[3]... . .

ويعد الدكتور طه عبد الرحمن من أبرز الباحثين المعاصرين اشتغالًا على التداخلية القائمة بين العلوم في التراث العربي الإسلامي، فهو يقول بصريح العبارة في كتابه؛ «تجديد المنهج في تقويم التراث: «ولقد نحونا

---

(١) - يراجع: منهجية التكامل المعرفي: مقدمات في المنهجية الإسلامية للدكتور حسن ملكاوي منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي: «٢٠١٢.

(٢) - يراجع بحثنا: علم أصول الفقه وتداخل العلوم، مجلة التفاهم العدد:٣٢، صيف:٢٠١١.

في تقويم التراث منحًى غير مسبوق، ولا مألوف، ولا معهود. فهو غير مسبوق؛ لأننا نقول بالنظرة التكاملية، وحيث يقول غيرنا بالنظرة التفاضلية. وهو غير مألوف؛ لأننا توسلنا فيه بأدوات مأصولة، وحيث توسل غيرنا بأدوات منقولة ... «[1] .

والتداخلية باعتبارها مفهومًا إجرائيًّا ومنهجًا ميسرًا لتفكيك بنيات التراث العربي الإسلامي عند الدكتور طه عبد الرحمن تعني في مضمونها العام وتدل في مجملها « بأن المعرفة الإسلامية تتداخل أنساقها تداخلًا كاملًا، فالفقه كان موصولًا بعلم الكلام، وعلم الكلام كان موصولًا بالفلسفة الإسلامية، ... فقد حصل في التراث الإسلامي تداخلٌ قوي بين المعارف إلى حد أن بعض العلماء جمع بين الفقه والفلسفة[2] ... « .

والذي لاحظه الدكتور طه عبد الرحمن هو ما لاحظه كثير من الباحثين والدارسين والمتابعين والمشتغلين بالتراث العربي الإسلامي، حيث أكدوا أن المعرفة الإسلامية كانت في أصلها معرفة متداخلة ومتكاملة اتجهت إلى تأمين وتحصين النص، من خلال بيان وتعيين مسالك المعنى في النص.

يعني هذا بشكل صريح هو تحقق التداخل في أقسام المعارف الإسلامية وفروعها بشكل قوي، بحيث إن الفقه كان موصولًا بعلم الكلام، وعلم الكلام كان موصولًا بالفلسفة، والفلسفة موصولة بأصول الفقه، وعلم النحو موصول بعلم المنطق.

وهو ما يدل بشكل صريح «أنه قد حصل في التراث العربي الإسلامي تداخل قوي بين جميع المعارف والعلوم ...»[3] .

ولتأصيل هذه التداخلية القائمة بين العلوم في التراث العربي الإسلامي، خصَّ الدكتور طه عبد الرحمن جزءًا من بحوثه ودراساته ومداخلاته لبيان حقيقة هذه التداخلية مبينًا آثارها، وكاشفًا عن امتداداتها في العلوم التراثية.

وقد قسم الدكتور طه عبد الرحمن التداخل القائم بين العلوم إلى قسمين أساسيين:

•التداخل الداخلي، وهو التداخل الذي يحصل بين العلوم التراثية الأصلية بعضها مع بعض، دون الأخذ بالعلوم المنقولة أو الدخيلة على الحضارة العربية الإسلامية، أعني العلوم غير المأصولة الوافدة والمتسربة من حضارات أخرى.

---

(١) - تجديد المنهج في تقويم التراث لطه عبد الرحمن: ١٢

(٢) - الحوار أفقا للفكر لطه عبد الرحمن:٢١٣.

(٣) - الحوار افقاً للفكر لطه عبد الرحمن: ٨٥.

•التداخل الخارجي يحصل بين العلوم التراثية الأصلية والعلوم الدخيلة الوافدة من حضارات أخرى، مثل ما حصل للمنطق مع غيره من العلوم الإسلامية خاصة علم أصول الفقه، بحيث امتزجت مباحث علم المنطق مع علم أصول الفقه مع علماء الأصول المتأخرين، لاسيما أمثال الإمام الغزالي (ت٥٠٥ هـ) في المشرق، وابن حزم الأندلسي في الاندلس[١]... .

يقول الدكتور طه عبد الرحمن: «اعلم أن التداخل تداخلان اثنان: أحدهما داخلي يحصل بين العلوم التراثية الآلية بعضها مع بعض. والثاني خارجي يحصل بين العلوم وغيرها من العلوم المنقولة الدخيلة ... ومن أبرز العلوم المجسدة للتداخل الداخلي علم أصول الفقه باعتباره علمًا مركبًا ومتكاملا من عدة معارف إسلامية متنوعة.[٢]

ويذكر طه أن من أبرز العلوم تشخيصًا وتجسيدًا لهذه التداخلية هو علم أصول الفقه، باعتباره علمًا نسقيًّا جامعًا ومؤلفا لكثير من المعارف والتخصصات العلمية، وإن كان التخصص الأكثر استحواذًا وحضورًا في هذا العلم هو للمعارف وللبحوث اللغوية والدلالية، لأن من مهام هذا العلم هو المهمة البيانية التفسيرية للنص الشرعي.[٣]

(١) - المنطق بين الغزالي وابن حزم لسالم يفوت: ٦٩، مجلة كلية الآداب، الرباط، المغرب، عدد خاص عن الإمام الغزالي.

(٢) - تجديد المنهج في تقويم التراث لطه عبد الرحمن: ٧٦.

(٣) - استثمار المعارف في فهم النص عند الأصوليين لأحمد كروم مجلة آفاق الأماراتية العدد: ٤٩-٢٠٠٥.

المرجع والداعي في تداخلية العلوم

إن الحضارة العربية الإسلامية في أصلها المعرفي وفي مرجعياتها الكبرى حضارة توصف -عند كثير من الباحثين والمشتغلين على التراث العربي الإسلامي- بحضارة النص؛ لأن مدارها ووجهتها هو النص المؤسس. كما تنعت الحضارة العربية بحضارة التفسير والبيان والتأويل؛ إذ لا تفسير بدون استحضار علوم اللغة، والاستعانة بعلوم الآلة التي هي بوابة البيان ومقدمة التفسير والتأويل.

إذ إن العلاقة بين القرآن الكريم والتفسير هي علاقة تلازمية متداخلة، فعندما نقول إن الحضارة العربية الإسلامية هي حضارة النص فهي كذلك حضارة التأويل والتفسير والبيان.

بحيث تمخض عن مركزية النص القرآني في الثقافة العربية الإسلامية أن اجتمعت كثير من العلوم والتحمت كثير من المعارف من أجل خدمة هذا النص في مستوى البيان والتفسير والاستمداد.

فعلم أصول الفقه وأصول التفسير وعلم القراءات وعلم أسباب النزول وعلم الدلالة من جملة العلوم الشرعية التي اشتغلت على تحصيل المعنى في النص، وهذه العلوم هي علوم مكملة ومتممة لعلوم اللغة العربية، مثل، النحو والصرف والاشتقاق والمعجم وعلم الدلالة والبيان وغيرها من العلوم المسماة بعلوم الآلة أو العلوم الخادمة لنص[1].

وهذا التعلق بين النص وهذه العلوم المعنونة بعلوم الآلة، هو ما أدى بالمصطلح في مختلف العلوم الإسلامية بأن يتخطى الحواجز الزمانية، ويتعدى الفضاءات المكانية، ويعبر بين التخصصات العلمية، ويرحل داخل معارف التراث العربي الإسلامي؛ ليأخذ المصطلح في هذا الانتقال، وفي هذه الرحلة أكثر من مفهوم، تبعًا للحقل المعرفي الذي يشتغل ويتداول فيه ذلك المصطلح.

وهذه العلوم الخادمة للنص هي المسماة بعلوم الآلة أو العلوم المقصودة لغيرها. سواء أكانت هذه العلوم من علوم الشريعة مثل أصول الفقه وأصول التفسير وعلم القراءات وعلم أسباب النزول وعلم المعجم القرآني، أو كانت من جملة علوم اللغة العربية مثل النحو والصرف والاشتقاق والمعجم وعلم الدلالة والبيان والمعجم[2].

---

(١) - يراجع أعمال ندوة: أهمية التكامل المعرفي بين علوم العربية في فهم القرآن الكريم، كلية اللغة العربية، مراكش٣١\١٠-٢٠١٣.

(٢) - يراجع أعمال مؤتمر التكامل المعرفي في العلوم، كلية أصول الدين، قسنطينة، الجزائر، أبريل: ٢٠١٥.

وهذا التعلق والترابط بين النص وهذه العلوم هو لغاية بعيدة تتحدد في تحصيل المعنى وتلقي الدلالة واكتساب الخطاب، وهو ما أدى بالمفاهيم المحمولة في المصطلحات أن تتخطى الحواجز الزمانية والمكانية، وتعبر بين التخصصات العلمية، وترحل داخل المعارف العلمية المشكلة للتراث العربي الإسلامي.

رحلة المفاهيم والمصطلحات

انطلاقًا من هذا المعطى المحدد في أن انتقال المفاهيم من حقولها المعرفية إلى حقول معرفية أخرى يعد من أبرز الأوصاف العلمية التي طبعت الدرس المصطلحي في التراث العربي الإسلامي، فإنه من الواجب المعرفي، ومن الضرورة المنهجية تحديد دلالة المفهوم والمصطلح من حيث اللغة والمفهوم والاصطلاح والاستعمال.

دلالة المفهوم

المفهوم في اللغة هو معرفتك الشيء بالقلب، فهمَه فهمًا وفَهمًا وفهامة، وفهمت الشيء : عرفته.

وفهمّتُ فلانًا وأفهمته وتفهم الكلام: فهمه شيئًا بعد شيء، ورجلٌ فهمٌ: سريع الفهم وأفهمه الأمر وفهمّه إياه: جعله يفهمه.[١]

وفي الاصطلاح: المفاهيمُ هي أنظمةٌ معقدة من الأفكار الأكثر تجريدًا والتي يمكن بناؤها فقط من خبرات متعاقبة في مختلف المجالات العلمية.

ويستعمل المفهوم ويُراد منه ما يُفهم من النص من غير أن ينطق به. أو بعبارة أخرى: إن المفهوم هو ما فُهم من اللفظ من غير أن يُنطق به.[٢]

والمفهوم هو تمثلات مجردة غير محسوسة مخصصة لأشياء يحملها العقل في تصوره لذلك الشيء، أو لصنف من الأشياء لها صفات مشتركة ويعبر عنه بمصطلحٍ أو برمزٍ.[٣]

فالمفهوم يعني تمثلًا فكريًّا لشيء ما محسوس أو مجرد، وقد نمت المفاهيم وتطورت واتسعت مع اشتغال الإنسان بالعلوم والمعارف بصفة عامة.

وبين المفهوم والمصطلح علاقة جامعة؛ لأن المصطلح هو اللفظ الذي يُسمَّى مفهومًا داخل تخصص ما.

---

(١) - لسان العرب لابن منظور ٤٥٩/١٢.

(٢) - معجم مفاهيم علم الكلام لحمو النقاري: ٤٨٤.

(٣) - مقدمة في علم المصطلح لعلي القاسمي ١٢٣، إصدار دائرة الشؤون الثقافية، العراق، ١٩٨٥

دلالة المصطلح

عرف المصطلحَ صاحبُ تاج العروس فقال: «اتفاق طائفة مخصوصة على أمر مخصوص» .

وعرّف الشاهد البوشيخي المصطلح فقال «المصطلح عنوان المفهوم، والمفهوم أساس الرؤية، والرؤية نظارة الإبصار التي تريك الأشياء كما هي[١].

-توصيف للمصطلح

إن الاصطلاح والمصطلح هو اتفاق القوم على وضع الشيء، وقيل في تعريفه: إخراج الشيء عن المعنى اللغوي إلى معنى آخر خاص لبيان المراد. وهذا التعريف هو من اختيار الجرجاني في كتابه التعريفات[٢].

والمصطلحات هي في أصلها مفاتيح العلوم على حد تعبير الخوارزمي، وقد قيل: إن فَهم المصطلحات نصف العِلم؛ لأن المصطلح هو لفظ يعبر عن مفهوم، والمعرفة هي مجموعة من المفاهيم التي يرتبط بعضها ببعض في شكل منظومة، وقد ازدادت أهميّة المصطلح وتعاظَم دوره في المجتمع المعاصر الذي أصبح يوصف بأنه «مجتمع المعلومات»، أو «مجتمع المعرفة «، حتى إن الشبكة العالمية للمصطلحات في فيينا بالنمسا اتَّخذت شعار «لا معرفة بلا مصطلح «[٣].

وهو ما يعني أن من شرط قيام المصطلح وحضوره من حيث التداول والاشتغال والاستمرار هو الاتفاق، وهذا قيد علمي، وأساس إبستمولوجي في تحديد ماهية المصطلح في أي حقل علمي، أو في أي تخصص معرفي، أو في أي مجال من مجالات العلوم الإنسانية ...[٤].

وهذا القيد المحدد في شرط الاتفاق هو شرط إجرائي، وقيد منهجي في دلالة المصطلح، وقد وُضع ورسم من أجل أن يتحقق التواصل، ويتم التفاهم العلمي بين المشتغلين بذلك العلم، والمتابعين لذلك التخصص ..[٥]

---

(١) -نحو التصور الحضاري الشامل للمسألة المصطلحية، للشاهد البوشيخي: ٤٥، مجلة التسامح العدد ٤، ص ١١٣.

(٢) - علم المصطلح وطرائق وضع المصطلحات في العربية لمدوح خسارة، دار الفكر، ط١، ٢٠٠٨م، ص١٣.

(٣) - نفسه.

(٤) - إشكالية مصطلح النقد الأدبي المعاصر: ص١١، المجلة العربية للثقافة، تونس، العدد:-١-، السنة: ١٩٩٨.

(٥) - الأسس اللغوية لعلم المصطلح لمحمود فهمي حجازي: ١٢. مكتب غريب ١٩٩٤.

ما يعني بشكل صريح أن المصطلح هو ركن أساسي في كل علم، فهو يسهل عملية التواصل، ويحقق التفاهم بين المشتغلين بذلك العلم من جهة، وبينهم وبين غيرهم من المهتمين بذلك العلم من جهة أخرى، خاصة الذين يودون البحث والاشتغال والمتابعة أو الانفتاح على ذلك التخصص[1].

وقد يختلف المفهوم عن المصطلح، ذلك أن المفهوم يركز على الصورة الذهنية، أما المصطلح فإنه يركز على الدلالة اللفظية للمفهوم، كما أن المفهوم أسبق من المصطلح، فكل مفهوم مصطلح، وليس العكس.

ومما ينبغي التأكيد عليه في هذا السياق هو أن المفهوم ليس هو المصطلح، وإنما هو مضمون المحمول في الكلمة، أو في ذهن المتعلم؛ ولهذا يعتبر التعريف بالكلمة أو المصطلح هو «الدلالة اللفظية للمفهوم»[2].

ومن شروط المصطلح الوضوح والبيان، والبعد عن الالتباس والخفاء...[3].

مركز نماء للبحوث والدراسات
Namaa Center for Research and Studies
نماء وانتماء

(١) - المصطلح العربي بين دقة الوضع وانحسار التداول لعبد القادر سلامي، دراسات اصطلاحية العدد: -٨-السنة:٢٠٠٩.

(٢) - مفهوم المصطلح ووظائفه لعز الدين البوشيخي: ١٥. ضمن منتدى الشارقة للدراسات المصطلحية: ماي ٢٠١٥.

(٣) - تحديد مفهوم المصطلح لإدريس الطراح: ضمن قضايا المصطلح في الآداب والعلوم الإنسانية.مكناس.

أهمية التحديد المفاهيم

إن مفتاح العلوم هو الدراسة المنهجية لمصطلحات هذه العلوم؛ فإن البيوت أصلها أن تؤتى من أبوابها، وأبواب كل علم مصطلحاته[١]، ما يعني بشكل مؤكد أن تحديد المفاهيم والمصطلحات يُعد مطلبًا معرفيًّا، وسؤالًا جوهريًّا، وقضية ملحة لأغلب علماء الإسلام. فقد كانت لهم مشاركة رائدة، وإسهام متميز في ضبط المفاهيم التي يشتغلون عليها، أو في التحقق من أهم المصطلحات التي يتداولونها ويستخدمونها في تخصصاتهم العلمية باعتبار أن المصطلح إما واصف لعلم قائم، أو مؤسس لعلم سيقوم[٢].

انطلاقا من هذا المعطى العلمي؛ فإن ضبط المفاهيم يعد من المداخل الأولية في بناء العلوم، أو في اكتساب المعرفة المحمولة في تلك العلوم.

يدل هذا أن تحديد المفاهيم من التقاليد الراسخة في مجال البحث العلمي؛ لأن تحديد المفاهيم هو في الأصل تحديد للأرضية العلمية المشتركة بين الباحثين.

ومن شأن هذا الضبط العلمي للمصطلح أن يرفع الخفاء، ويدفع الخلط، ويبعد الالتباس عن تلك المفاهيم المستخدمة والمستعملة في تلك العلوم، وييسر التواصل المنضبط ما دامت تلك المفاهيم تشكل عرفًا خاصًّا بين مستخدميها ومستعمليها.

ويندرج في اهمية المفاهيم البدء بالتحقق من الألفاظ من حيث اللغة والاستعمال والسياق، وهذا المقتضى المنهجي الرابط بين المصطلح والتحقق من دلالة الألفاظ، عبر عن أهميته وقيمته العلمية الإمام ابن حزم الأندلسي (ت٤٥٦هـ) عندما صرح بأن الضرورة المنهجية في الفهم والبيان تقتضي استقلال الألفاظ في المعنى باعتبار أن «لكل اسم مسمى يختص به، ويتبين به المراد ليقع به التفاهم والبيان ... ولو لم يكن ذلك لما كان تفاهم أبدا، ولَبَطُلَ خطاب الله تعالى لنا»[٣].

---

(١) - منهج الدراسة المصطلحية للشاهد البوشيخي: ١٤٤. دار السلام، مصر، ٢٠١٥.

(٢) - هذه العبارة ترددت كثيرًا في مداخلات المشاركين في الندوة الدولية بالكلية المتعددة التخصصات بأسفي المغرب: المصطلح وسؤال المعرفة: ١٨-٠٥- ٢٠١٦.

(٣) - الإحكام لابن حزم: ٢٠/٨.

جاء في كتاب الإحكام لابن حزم ٣٨/٣ : «إن اللغات إنما رتبها الله عز وجل ليقع بها البيان، واللغات ليست شيئًا غير الألفاظ المركبة على المعاني المبينة على مسمياتها».

في هذا السياق أن من مقتضيات المفاهيم في بنائها ودلالتها وانتقالها هو وجوب أن تحمل هذه المفاهيم مفهومًا واحدًا داخل التخصص الواحد الذي تنتمي إليه أو تحضر فيه، فإن هو خرج هذا المفهوم عن هذا التخصص فإنه يأخذ مفهومًا جديدًا مغايرًا عن الاستعمال الأول، ودلالة خاصة في التخصص الذي هجر إليه.

وهذا الإشكال المعرفي هو الذي عبر عنه بصريح العبارة الإمامُ ابن حزم (ت٤٥٦هـ) الأندلسي في قوله: «فلا شيء أعون على ذلك من تخليط الأسماء الواقعة على المعاني ...»[1] .

يعني هذا أن انتشار المفاهيم والمصطلحات بين العلوم ظاهرةٌ طبيعية في جميع المعارف والعلوم الإنسانية، بسبب التقاسم التي تشترك فيه المعرفة الإنسانية من حيث الاشتراك في المرجعيات، والاتفاق على الأهداف، التي تجمع تلك المعارف بصفة عامة.

على هذا الاعتبار العلمي فإن الإحساس والاعتراف بهذه الظاهرة العلمية المعرفية استقرت بشكل ملحوظ في المعارف الإسلامية خاصة. لتأخذ هذه الظاهرة المصطلحية اسم المفاهيم الرحالة، أو المفاهيم المهاجرة ... وهو مؤشر علمي على مدى التفاعل والتواصل الذي كان قائما بين العلوم في التراث العربي الإسلامي. مما انعكس أثره على دلالة المفاهيم، وانتقالها من حقولها الأصلية التي فيها نشأت وتأصلت إلى حقول معرفية أخرى مستقبلة ومحتضنة لها، حاملة في هذه الرحلة والانتقال مفاهيم جديدة غير المفاهيم التي اكتسبتها في تخصصها الأول ... وهذا أمرٌ مُسلّم به بين الدارسين والمشتغلين بالمسألة المصطلحية في التراث العربي الإسلامي[2].

---

(١) - الإحكام في أصول الأحكام :١٠١/٨

(٢) - المفاهيم الرحالة من علم إلى أخر لمحمد حدوش، ضمن ندوة: قضايا المصطلح في الآداب والعلوم الإنسانية، مكناس، كلية الآداب: ٢٠٠٠.

المسألة المصطلحية في التراث

لقد شكل البحث في المصطلح خيارًا علميًّا لكثير من النُّظُم المعرفية في التراث العربي الإسلامي، مما أهّل الدرس المصطلحي لأن يكون نظامًا معرفيًّا شاملًا وقائمًا بذاته، حاملًا لمجموعة من المسائل والخصائص والمواصفات العلمية والمنهجية.

ومن أبرز قضايا الدرس المصطلحي في التراث العربي الإسلامي هو متابعة انتقال المفاهيم والمصطلحات وعبورها بين التخصصات العلمية والمجالات المعرفية.

وانطلاقا من هذه القناعة المعرفية، وأخذًا بهذا الثابت الحامل لهذا المضمون العلمي، وهو أن المفاهيم المحمولة في المصطلحات تتخطى الحاجز الزماني، وتنتقل بين التخصصات والقطاعات المعرفية لتستقر في غير علومها الأصلية التي نشأت وتأصلت فيها، لتأخذ في هذا الانتقال والعبور معنًى خاصًّا، ومفهومًا مغايرًا يفارق ويختلف في الدلالة عن المعنى الأصلي الذي كانت عليه في المفهوم الأول، أعني في التخصص الأول الذي فيه نشأت وتأصلت[1].

ومن تجليات حضور المسألة المصطلحية في التراث العربي الإسلامي تخصيص رسائل وكتبًا خاصَّة في المصطلح، من ذلك ما فعله الإمام ابن حزم عندما خصص رسالة سماها «الألفاظ الدائرة بين أهل» ومما قال فيه: «هذا باب خلط فيه ممن تكلم في معانيه وأوقع الأسماء على غير مسمياتها، ومزج بين الحق والباطل ...[2]» .

من جهة أخرى نقول إن حضور المسألة المصطلحية في التراث العربي الإسلامي مؤشر على مدى حضور المنهج في هذا التراث من حيث هو آليات ضابطة، وقواعد راسخة مساعدة في اكتساب وتحصيل المعرفة في العلوم التراثية؛ لأن المنهج هو السبيل الهادي، والطريق المحصن، والمسلك المرشد للبحث أو لتحصيل المعرفة بصفة عامة ...[3] .

---

(١) - انتقال المفاهيم والنظريات: أعمال ندوة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، رقم السلسلة:٧٦-السنة:١٩٩٨.

(٢) - الإحكام في إصول الإحكام لابن حزم: ٣٥/١.

(٣) - أنجزت مجلة العلوم الإنسانية البحرانية ملفًّا عن المصطلح في عدد من التخصصات العلمية، العدد:١١، السنة: ١٩٩٩.

فالمنهج كان وما زال هو مشكلة العلوم بصفة عامة، والعلوم الإسلامية بصفة خاصة.

فالمنهج عادة ما تتحدد مهامه وأدواره ووظائفه في كونه مجموعة من الآليات والمسالك الراشدة التي ينبغي اتباعها ونهجها والتقيد بها من أجل استخلاص وتحصيل المعرفة بطريقة سليمة، والوصول إليها بطرق سديدة، انطلاقًا من هذه المسلّمة المعرفية المؤصلة، والحاضرة والموجهة بقوة في التراث العربي الإسلامي وهي أن: «**سلامة الأفكار والنتائج في أي تخصص معرفي، أو علمي، يتوقف على مدى سلامة المنهج، وصحة الطرق، والمسالك الموصلة إلى المعرفة في ذلك التخصص**[(١)]...».

بحيث أدركت الممارسة التراثية في وقت مبكر الخاصية المعرفية للمنهج إدراكًا تامًّا، وصاغت هذا الإشكال بصيغ مختلفة، مرجعها الأول هو الأهمية والقيمة العلمية التي يحتلها المنهج في الوصول إلى النتائج في مختلف أصناف المعرفة[(٢)].

فهذه الاعتبارات العلمية هي التي أملت على علماء الإسلام الاهتمام بالمصطلح في وقت مبكر، تأخذهم هذه القناعة وهي كون المصطلح من أبرز مكونات وتجليات المسألة المنهجية الحاضرة في علوم التراث، وهو أحد أبرز المظاهر الكاشفة لكيفية اشتغال العقل الإسلامي في إنتاج للمعرفة عامة، أو في تعامله مع المفاهيم المشكلة لتلك المعرفة خاصة[(٣)].

هذه الاعتبارات العلمية هي التي أهلت المسألة المصطلحية بأن تحظى بهذه العناية الكبيرة وبالاهتمام المتزايد، والمتابعة المستمرة في العلوم الإسلامية، باختلاف فروعها وتعدد أنواعها وتنوع نظمها ومجالاتها. من خلال العناية المبكرة بمعاجم العلوم الخاصة أو المعاجم ذات العلاقة التخصصات العلمية أو من خلال المعاجم التي وضعت للمصطلحات في مختلف المعارف التي حضرت في التراث العربي الإسلامي[(٤)].

---

(١) -نظرية الاعتبار في العلوم الإسلامية: ١٠.

(٢) - تجديد المنهج في تقويم التراث لطه عبد الرحمن :٨٦

(٣) -المصطلحات الرحالة من علم الكلام إلى علم أصول الفقه لمحمد بنعمر. بحث أُلقي في الملتقى الدولي: علم الكلام في الغرب الإسلامي، بمركز الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، بوجدة المغرب. نوفمبر:٢٠١١. وجدة:-١٤-١٥ نوفمبر ٢٠١٤.

(٤) - معجم المعاجم تعريف بنحو ألف ونصف الألف من المعاجم العربية التراثية تأليف: أحمد الشرقاوي إقبال، الناشر: دار الغرب الإسلامي الطبعة الثانية :١٩٩٣.

- المكتبة المصطلحية في العلوم الإسلامية لأحمد حدادي، مطبعة جسور وجدة المغرب: ٢٠٠٠.

انطلاقًا من هذا المعطى العلمي الكاشف لترابط المسألة المصطلحية بالمنهج في التراث العربي الإسلامي، فإن المؤشر في قياس مدى تقدم العلوم، أو إدراك نمو المعرفة هو الأخذ بهذا المنطلق أن نجاح المعرفة ومن مداخلها في تشييد أنساقها الاصطلاحية، وبناء أنظمتها المفهومية هو وحدة المفهوم في تلك المعرفة. وهذا من شأنه أن يسهل عملية التواصل بين المشتغلين بذلك التخصص العلمي بصفة عامة[١].

والذي أهل المسألة المصطلحية بأن تحظى بهذه الأهمية. وبالمقاربة العلمية في جميع العلوم التراثية: لأن مصطلحات العلوم هي المرآة الكاشفة، والوجه العاكس لأبنيتها العلمية المجردة، ومن خيل له أن يقتفي اثر المعرفة دون تمثل تصوراتها المركبة لها والفعالة فيها من خلال أدواتها، وآلياتها الإجرائية الدالة عليها. فإنه لا محالة يكون بعيدًا عن التماس وتحصيل هذه المعرفة العلمية...»[٢].

وعليه فإن التحكم في المصطلح من حيث الوضع والضبط والمفهوم والمجال والإجراء والمرجع والحقل والانتقال الذي فيه يتم تداول واستعمال ذلك المصطلح. هو تحكم في المعرفة المراد إيصالها إلى متلقيها، أو إلى المحتاج إليها، والقدرة على ضبط أنساق هذه المعرفة في مكوناتها، وأصولها ومجالاتها، والتمكن من إبراز العلاقات الموجودة بينها. باعتبار أن المصطلح هو مفتاح التواصل والتلاقي بين العلوم والثقافات والمعارف الإنسانية.

هذا الاختيار المنهجي يعني أن البحث المصطلحي من أهدافه هو السعي نحو توحيد الخطاب العلمي بين الباحثين؛ لأن هذا التوحيد هو الذي يعمل على ضمان التفاهم وتحقق التواصل المشترك بين الباحثين، والمشتعلين في الحقل المعرفي الواحد، ويضمن استمرار ذلك العلم الذي عليه يشتغلون. وعليه فإنه «لا علم بدون فهم، ولا فهم بدون تذليل عقبة المصطلح ...»[٣].

ما يعني صراحة أن الدرس المصطلحي اكتسب قيمته المعرفية من كون المصطلحات هي مفاتيح العلوم، وأحد مداخل للصناعة العلمية[٤].

---

(١) -أهمية استعمال الصيغة الصرفية في توحيد لاستعمال لاصطلاحي لحسين كنوان مجلة مكناسة.

(٢) - المصطلحات المتصلة باللغة لعبد السلام المسدي: ٥٤٧، ضمن ندوة الدراسات المصطلحية والعلوم الإسلامية فاس سايس المغرب١٩٩٨.

(٣) - ندوة الدراسات المصطلحية والعلوم الإسلامية ج:-١- ١٨ السنة: ١٩٩٦. منشورات كلية الآداب، فاس سايس.

(٤) - مفاتيح العلوم الخوارزمي ت٧٩٧هـ: ص:١٦.

-المصطلح وخدمة النص

لقد أدركت المعرفة الإسلامية في وقت مبكر أن الاشتغال بالمصطلح يندرج ضمن سياق عام، وهو توجيه المصطلح نحو المعرفة الخادمة للنص الشرعي في جميع مستوياته وأبعاده وآفاقه لاسيما البعد البياني التفسيري .

وهذا الاهتمام بهذا البعد جاء في أفق التوجه نحو استمداد المعنى من النص، مع اتخاذ المصطلح وجهة معرفية وموقعًا راشدًا في التحقق من الألفاظ المركبة للنص. باعتبار أن هذا التحقق يعد من أهم المداخل الأولية والسبل الأساسية المؤدية إلى الفهم.

فأول ما ينبغي أن يبتدئ به المفسِّر في معالجة النص وتحصيل المعنى منه هو التحقق من الألفاظ في النص بمعرفة الدلالة المعجمية والسياقية للفظ في النص، والفصل بين الألفاظ اللغوية من الشرعية أو العرفية[١].... .

باعتبار أن الفهم السليم للنص لا يتيسر ولا يتحقق إلا بالانطلاق بالخدمة اللُّغوية لألفاظ ذلك النص[٢]؛ لأن النص القرآني هو في أصله يُعد نصًّا لُغويًّا من جنس كلام العرب مؤلَّفا ومركبًا من جمل وتراكيب جاءت باللغة العربية، ما يعني أن الفهم للنص من مداخله الأساسية هو الانطلاق من اللغة العربية في ألفاظها وأساليبها وتراكيبها.

مع السعي نحو اتخاذ سياق التنزيل المرجع في إكساب الدلالة للغة التنزيل؛ أي للغة القرآن التي بها نزل ... مع عدم الالتفات إلى اللغة الجارية التي كانت متداولة بعد زمن التنزيل وما طرأ عليها من تطور في الدلالة والمعنى[٣].

وهذه دلالة تؤكد أن علاقة المصطلح بالفهم تتحدد من أن المصطلح يعد البوابة الرئيسية، والمنطلق الأساسي في التفسير، وأحد المداخل الأساسية في الفهم السليم للنص.

فالتحقق من المصطلح في النص هو في أساسه مقدمة أولية، وأساسية في اكتساب المعنى، وتحصيل هذا المعنى من النص[٤].

---

(١) - مقدمة في المنهج للدكتورة عائشة بنت الشاطئ: ١٢٣.

(٢) - لغة القرءان ومنهج الدراسة المصطلحية لعز الدين البوشيخي: ٤٥.

(٣) - أثر السياق في فهم القرآن الكريم لعبد الرحيم بودراع: ١٤٥. مجلة الأحياء المغربية، العدد: ٢٥*السنة:٢٠٠٧.

(٤) - تجديد المنهج في تقويم التراث: ٨٧.

بحيث عادة ما يأتي الفساد في التفسير نتيجة سوء الفهم لألفاظ القرآن الكريم، وعدم التحقق من هذه الألفاظ في مستوى الاستعمال والسياق، أو أن تحمل الألفاظ القرآنية على دلالات ومعانٍ جديدة مغايرة لسياق التنزيل.

ومن مظاهر سوء الفهم للنص القرآني، ومن تجليات خفاء المعنى، إسقاط الدلالات الجديدة والمعاني الحادثة بعد نزول القرآن على الألفاظ المحمولة في القرآن. وهذا من أبرز محددات الفساد، وتجليات الخلل، والتقصير في الفهم والتفسير والاستمداد.[١]

من هنا من الواجب على المشتغل على ألفاظ القرآن الكريم أن يولوا وجوههم شطر القرآن الكريم ويقبلوا النظر في دراسة ألفاظه بمنهاج يتبنى التحقق من اللفظة القرآنية من حيث الوضع اللغوي والاستعمال القرآني مع الاستعانة بمنطق اللغة العربية ولسان العرب في الخطاب والتخاطب.[٢]

فالألفاظ والمصطلحات هي مفاتيح المعنى في القرآن الكريم، فقد حمل القرآن الكريم عددًا كبيرًا من الألفاظ والمصطلحات بحيث اكتسبت تلك الألفاظ دلالة خاصة في الاستعمال القرآني.

وهذا الاقتران بين الفهم والنص أي بين الاستمداد والقرآن كان من آثاره أن صارت العلوم الشرعية في أكثرها علوم اصطلاح.

من هنا فقد شكل المصطلح الذي من تجلياته ومقدماته التحقق من الألفاظ أحد الأدوات الإجرائية والأساسية في التفسير، وإن كان المصطلح يتأسس على مجموعة من المراحل المترابطة في ما بينها، باعتبار أن المصطلح هو من اهم مداخل التفسير، ومن أحد أبوابه الأساسية .[٣]

من هنا نقول إن حل المعضلة القائمة بين المصطلح والفهم السليم والسديد للنص يتوقف على مدى ضبط المصطلح القرآني الذي هو السبيل في تحقيق الفهم السديد والسليم للنص.

كما أن الفهم السليم في التفسير متوقف على مدى سلامة المنهج لذا يعد منهج الدراسة المصطلحية من أبرز تجلياته ومكوناته. في تفسير النص القرآني.[٤]

---

(١) - جهود الأمة في خدمة المصطلح القرآني ضمن مؤتمر جهود الأمة في خدمة القرآن الكريم فاس :٢٠١١.

(٢) - مفهوم الامر لجميلة زيان:٢٣/١. دار ابن حزم ٢٠١٠.

(٣) - لغة القرآن ومنهج الدراسة المصطلحية لعز الدين البوشيخي: ٤٨.

(٤) - يراجع أعمال المؤتمر الدولي: آفاق خدمة النص والمصطلح في الدراسات القرآنية، فاس المغربي: أبريل : ٢٠١٥.

استنتاج

إن انضباط المعارف واتساقها من حيث الموضوع والمنهج وحضور التواصل بينها: أو بين المشتغلين بها متوقفٌ على مدى تحصيل وتحقيق المصطلحات المتداولة في ذلك العلم تحقيقًا يبعدها عن الإبهام، وتحصيلًا يرفع عنها الخفاء والالتباس.

والمنهج القائم على الدراسة المصطلحية من مقدماته وبدايته اتخاذ المصطلح بوابة إلى المعرفة، وهذا من شأنه أن يفضي بنا إلى الاعتراف المبدئي والقول بأن الدرس المصطلحي كان من ضمن أحد أبرز مستويات الاشتغال على فهم النص، ومقدمة من مقدماته الأساسية، وإن هذا الدرس ابتدأ انطلاقًا من الرصد الدلالي للألفاظ المحمولة في النص، وتتبع تطورها وتحولها، خاصة تلك الألفاظ التي انتقلت من معناها اللغوي إلى المعنى الإصلاحي الشرعي، وأخذت في هذا النقل، والانتقال مصطلح الحقائق أوالأسماء الشرعية.

وبصفة عامة نقول إن اتخاذ المنهج المصطلحي منهجًا في الفهم للنص من حيث تحصيل الدلالة واكتساب المعنى، يشكل أحد المقدمات التمهيدية في العناية والاهتمام بالمصطلح في التراث العربي الإسلامي بصفة عامة.

فهو أداة احترازية من التحصن عن الخلافات، وقد صرح الإمام الغزالي (ت٥٠٥هـ) في كتابه المستصفى: «بأن كثيرا من الخلافات منشؤها عدم الوضوح في المصطلح بين المشتغلين به...»[1] .

من جهة أخرى فهو أحد الدلائل الكاشفة عن حضور المنهج في التراث العربي الإسلامي ما يعني أن استقامة المنهج ينبغي أن تكون فوق كل حرص، وأن جميع الجهود العلمية يجب أن تتجه إلى المنهج.

---

(١) - الاقتصاد في الاعتقاد للإمام الغزالي:٢٢.